نسق التّابع السّياسي في الشعر الجزائريّ المعاصر – مقاربة من منظور النّقد الثّقافي

The Pattern in Contemporary Algerian Poetry - An Approach from the Perspective of Cultural Criticism

جلاط محمد*

جامعة الجيلالي اليابس – سيدي بلعباس

Djellatmed7@gmail.com

تاريخ الارسال: 2022/09/01	تاريخ التقييم 2023/02/20	تاريخ القبول: 2023/06/23

الملخص:

تتغيّا هذه الدّراسة رصدا فاحصا لتمظهرات التّابع في الشعر الجزائريّ المعاصر، لقد شكّل مفهوم التّابع ظاهرة ملفتة في مجال الدّراسات المنضوية تحت سماء النّقد الثّقافي، ولعلّ ذلك لكونه مفهوما مطّاطيّا، يمكن أنْ يفرض وجوده في الكثير من المجالات كالنّسويّة والسّياسيّ والدّينيّ، كما يمكنه أن يتماهى مع الكثير من المفاهيم التي تدّعي الجدّة في انوجادها .

ستفيد هذه المقاربة في جانبها النّظريّ من مقولات التابع، وما تنطوي عليه هذه المقولات من تشخيصٍ فاعل لحقيقة الصّراع الوجوديّ بين التابع والمتبوع، أمّا المحور الإجرائيّ في هذه المقاربة فيرتكز على نماذج شعريّة من الشّعر الجزائريّ تبين عن تجلّيات مفهوم التّابع كنسقٍ منكتبٍ في ثنايا البوح .

الكلمات المقتاحيّة : تابع ؛ متبوع ؛ ثقافة؛ هيمنة ؛ مثقّف؛ مناضل .

Abstract : This study attempts to monitor closely the manifestations of the subordinate in contemporary Algerian poetry. The concept of the subordinate has been a striking phenomenon in the field of studies under the sky of cultural criticism, perhaps because it is an elastic concept; It can impose its presence in many fields such as feminism, politics and religion, and it can also identify with many concepts that claim to be severe in their creation.

In its theoretical aspect, this approach will benefit from the categories of the subordinate, and what these categories contain of an effective diagnosis of the reality of the existential conflict between the subordinate and the subordinate.

Key words: follow ؛followed ؛culture ؛domination ؛educated ؛fighter.

*المؤلف المراسل.

1. مقدمة:

الحديث عن النّسق السّياسي في جوهره هو الحديث عن مجموعة من التّعارضات بين مركزٍ وهامش، فالفكر الإنسانيّ مترتّب على جملة من الثّنائيات المتناقضة، التي تمارس ضغطها وتوجّهاتها على الرّؤى الفكريّة والثّقافيّة، ومن شأن هذا التّضادّ أنْ يرسم صورة الآخر عند الذّات، فليس غريبًا بعد هذا أنْ ينوجد الإقصاء كأساس يحكم العلاقة بين المركز والهامش، « لأنّ العالم في جوهر التّفكير الفلسفي لا ينبغي أنْ يكون إلّا كذلك، مركزٌ ومحيط، ومن ثمّة لا يمكن البحث في أمر الموازنة بين ثنائيّات متضادّة، وتبعًا لذلك يستحيل التّوفيق بينها، إلّا بشمول الطّرف الأوّل للطّرف الثّاني ثقافيًّا، ومنطق الأشياء لا يقبل العكس »[1]، « وهذا يشبه ما وصل إليه ميشال فوكو الذي عدّ الخطاب قوّة تمارس سلطتها»[2]، في السّياق نفسه يؤكّد علي حرب «أنّنا أبعد ما نكون عمّا ندّعيه من امتلاك القبض والتّيقّن أو التّحكّم، سواءً في ما يتعلّق بذواتنا وخطاباتنا أو بأشيائنا وأدواتنا»[3]، هي إذن ثنائيّة مركزٍ وهامش، قوّة وضعف، هيمنةً ورضوخ، وهذه الرّؤية يقود قسرًا إلى الوجه الآخر من السّياسيّ، إنّه من السّطحيّة بمكان مقاربة السّياسي من خلال ثنائيّة الحاكم/ المحكوم، أو من خلال أنظمة الحكم، لأنّ تاريخ العلاقات الإنسانيّة يثْبتُ انوجاد ممارساتٍ سياسيّة مكتملة بعيدًا عن نظام الحكم، ومن أمثل الأمثلة على هذا علاقة الأفراد بعضهم ببعض، وعلاقة الفرد بالمؤسّسات التي تدّعي انوجادها لتنظيم حياته، ويصادفُ أنْ تنوجد هيمنةٌ من طرف فرد على مؤسّسة تتّصف بالتّعالي والقوّة، ظهر هذا بصورة أجلى في سيطرة رجال المال على مؤسّسات السّياسة، وهو ما سيأتي التّطرّق إليه في البحث لاحقًا .

النّص الشّعريّ الجزائريّ المعاصر كان مواكباً للواقع السّياسيّ مواكبةً عارفةٍ، فكان رقيباً من خارج المؤسّسة السّياسيّة، يرصد تجاوزاتها، وتفاعلاتها الدّاخليّة ومع الآخر، فليس عجباً أنْ تنكتب داخله أنساقٌ تعبّر عن هذا التّفاعل، ومن أهمّها نسق تعارضات

المركز والهامش، وما يتفرّع عن من وجود تابعٍ ومتبوع، في إطار مصطلح "الهيمنة" من منظور غرامشي . فماهي تجلّيات نسق التّابع في النصّ الشّعريّ الجزائريّ المعاصر، وما مدى تعريته للواقع السّياسي .

2. أركيولوجيا التابع :

إنّ أصل مفهوم التّابع سياسي بامتياز« إذْ بدأ مفهوم التّابع بكونه وصفًا لرتبةٍ مؤكّدةٍ في الجيش؛ ثم استخدمت الكلمة برعاية أنطونيو غرامشي حيث كان مجبرًا على إطلاق تسمية التّابع البروليتاري؛ فوظّفتْ تلك الكلمة بإكراهٍ لتتحوّل إلى وصف أيّ شيءٍ لا يخضع لتحليل حكم الطّبقة المتزمّتة، ولهذا تفضّل " **سبيفاك**" مفردة التّابع لأنّها لا تملك صرامةً نظريّةً »[4]، هذه الصّرامة النّظريّة التي دأب عليها غرامشي حين قدّم -عبر التّأويل- تخريجات تخصّص مفهوم التّابع إلى أنواعٍ من المثقّف، تُكَوِّنُ طرفًا مهمّا في جدليّة العلاقة مع السّلطة.

عبر نسق التّابع يمكن تقصّي الكثير من أنواع المثقّف، وأنماط علاقاته مع مختلف السّلط، والتي تتّكئ أساسًا على ثنائيّة القوّة/ الهيمنة من لدن السّلطة، في مقابل العنف من لدُن التّابع، «إنّ قانون الإزاحة الذي تجسّده العلاقة السّالبة بين المتبوع وتابعه ينطوي على فكرة العنْف والعنْف المضادّ، ولهذا تستنتج الفيلسوفة حنّة أرندت أنّ القوّة والعنف متضادّين، ففي حين يستطيع العنف أنْ يدمّر القوّة فإنّه لا يتمكّن من خَلْقها... وبالتّالي يصنّف العنف جزءاً من المجتمع اللّامدني/ اللّامتحضّر في إطار اللّحظات والأحداث الإيديولوجيّة، والثّقافيّة، والسّياسيّة في التّشكيلات الاجتماعيّة »[5] ، ذلك هو ما يؤثّثُ جملة التّجاذبات الحاصلة بين السّلطة والمثقّف في الجزائر، إذْ لا يتحدد موقع المثقف إلّا من خلال موقفه من السلطة، لأنّه ينخرط دائماً في مأزق المواجهة حدّ التنافر معها، ولم توصف هذه العلاقة في إطارها التنظيري إلّا من خلال هذه الزاوية: أيْ الإقصاء والاستبعاد والتهميش .

من المهمّ التّنويه ابتداءً أنّ أيّ مُحاولةٍ لمدّ الجسور بين مفهوميْ "التّابع" و"المثقّف" ؛ ستكون من خلال مرجعيّتيْ الجغرافيا والإيديولوجيا، فإذا كان المثقّف العضوي تابعاً للسّلطة من منطلق الإيديولوجيا، فلن يكون توصيف المثقّف الثّوريّ بالتّابع من قبيل الجرأة والتّحامل، لأنّه في حكم "التّابع" على الأقلّ من خلال الجغرافيا .

تدّعي سلطةُ الألفيّة الثّالثةُ تكريسَ التّعدّديّة واتّساع هامش الحريّة، غير أنّها أيْضًا تمثّل الزّمن المنتهك والمرتبك، فتوازياً مع تفكّك المركزيات الثقافية التّقليديّة؛ وتعدّد المنظورات انفلت راهن الإنسان الجزائريّ، فصار زمنُه يحتمل الكثير من ممكنات التّحوّل، فمن الزّمن المتعيّن بداهةً؛ والمُسهم في بناء هويّةٍ واضحةٍ سابقاً، أصبح الحديث عن الزمن المخنوق واللّامُتعيّن، أو اللّازمن، حيث تم إرجاء كل المحدّدات الشخصية والمندرجة في الزمن عبر تطوراته، ومعه تمّ خنْق كلَّ الأُطُر المرجعيّة والملامح التشخيصية، ويرجع علي حرب هذا الانتهاك في الزّمن إلى: «(1)المركزية البشرية التي تدمّر البيئة والطبيعة، (2)النرجسية الثقافية التي تُلغّم صيغ العيش بين الجماعات، (3)النّظرة الأُحادية التي تختزل الواقع بغناه وتعقيداته والتباساته إلى بعدٍ واحدٍ، أوْ وحيد العنصر والقطب أوالمرجع والرّأي، (4) عبادة الأصول والتّمترس وراء النّصوص للانقلاب على القضايا والتّعلق بالأشياء حتى بأضدادها أحياناً، (5) حراسة المقولات بتحويلها إلى قوالب متحجرة، أو إلى أنساق مغلقة تخْنق الحيويّة الفكرية، وتشلُّ الطّاقة على التحول الإيجابي والعمل البنّاء،وكلها عوائق وأعطال تولد الجهل والعجز والإقصاء، بقدر ما تخلف المساوئ والمخاطر والكوارث»[6]، سيكون المهتمّ بالشّعر أمام زخمٍ من نصوص اللّازمن التي تروم توصف الوضع، وتتّخذ جملةِ من المواقف إزاءه، وهي توصيفات ومواقف تنشبك أساسًا مع تموضعات المثقّف إزاء السّلط، باعتباره محور الفعل الحضاريّ، لأنّ« الحياة بأسرها نضال، فويل لكل حيٍّ يُريد أنْ يعيش دون نضال» كما يقول نيتشه .

3. الجانب التطبيقي – تجليات التابع :

1.3. المثقف الثوري:

يقول البشير الإبراهيميّ في حاجة الأمّة إلى المثقّف « تحتاج الأمة إلى مثقّفيها أيام الأمن لينهجوا لها سبيل السعادة في الحياة، ويزوّدوها بعلمهم وآرائهم ليصلح حالها ويستقيم

أمرها، وتحتاج إليهم أيّام الخوف لإيجاد الحلول للمشاكل العالقة، وقهر المصاعب التي تعترض طريقها»[7].

يقدّم لنا الشّاعر المخضرم سليمان جوادي أنموذج المثقّف الثّوري « المسكون برغبة التّغيير، والرّافض لكلّ أدلجة جاهزةٍ، حيث يحاول الإجهاز على المعطى الوجودي من أجل الكشف عن حدود الالتباس في كلّ المفاهيم الصّوريّة المنْجزة، أو المنتجة من قبل السّلطة»[8]، يقول في قصيدة " مرآة ":

بصمتي الرّابض كالبركان

بصمتي الرّافض للحياد

برفضي المرفوض وانقيادي

بثورةٍ مكبوتةٍ ستفصل الأمور في بلادي[9]

يعمد الشّاعر في هذا المقطع إلى سيميائيّة العنف:(بركان/ثورة/ الكبت/الرّفض)؛ ليضع قارئه إزاء انفجارٍ وشيكٍ، لأنّ سليمان جوادي لا يرى السّلطة في راهنه إلّا وجها آخر من سلطة محتلّ الأمس، لقد ظهر هذا النّوع من المثقّف بصورة أجلى في أثناء الرّبيع العربيّ،حيث اعتمد النّقد والمساءلة من أجل الكشف عن المسكوت عنه، في حدود الصّمت وهامش الواقع المؤدلج والحقيقة المصطنعة المستوحاة من محتلّ الأمس، بعيد الاستقلال .

يعود سليمان جوادي إلى أصل الإشكال في وطنه، والمتعلّق بالفساد الذي أضحى نسقاً ذا سطوة في جزائر الألفيّة الثّالثة :

أجمل أشعار ثورتنا

هي تلك التي عجزتْ عن ترويضها الكلمات

ليس بدْعاً فثورتنا أعْظم الثّورات [10]

لقد كانتْ ثورة الجزائر عظيمة حيثُ استعصى تاريخها على التّزييف، وانكفأت كلّ العلامات اللّغويّة:(الكلمات) دون ذلك، لكنّ التّزييف قَوِيَ في الألفيّة الثّالثة، وتعدّدت وجوهه، فمن تزييف التّاريخ، إلى الفساد المالي، إلى الفساد السّياسي المعزّز بانتخابات صوريّة ومال فاسد، إلى تفتيت ممنهج لمقدّرات الشّعب، أضحى الفساد جزءاً من منظومة السّياسة، وسبباً مهمّاً في حالة الإحباط العامّة .

إنّ نشاط المثقّف الثّوريّ عند سليمان جوادي لا يقتصر على معارضة السّلطة، بل يمتدّ نشاطه إلى كلّ ماله علاقة بخلق وعيٍ مستنير « وانطلاقاً من هذا المنْحى في المعالجة، تبدو الحقيقة بمثابة اشتغالٍ على الموادّ، أو استخدامٍ للمعايير، أو بناءٍ للنّماذج، أو صوغٍ للوقائع، أو إنتاجٍ للموضوعات، أو تشكيلٍ للخطابات، أو خلع للدّلالات، أو ممارسةً للذّات »[11]، إنّه الالتزام في مفهومه الوجودي، الذي يُنافي العمَى الثّقافي .

إسلام من هذا الذي زعموا

يميتُ الحبّ فيك يبيح دومًا أدمُعك

ويريقُ من دمك العزيز جداول

هذا الذي وضع اللِّحَى

فوق العقول

وشقّ من يومٍ لآخر أضلعك[12]

يتوقّع الشّاعر من متلقّيه الوقوع في مغالطة تأويليّة مفادها أنّ الشّاعر ينتقد الأحزاب الإسلاميّة، من هنا جاءتْ علامة "اللّحى" لتحْسم المآل الدّلاليّ، إنّ المقصود هو انتقاد الإسلامويّة برمّتها، الإسلاماويّة العالميّة التي نسجتْ خطابًا يحتفي بشكل التديّن، وينافي ما عليه التديّن البسيط، وفرّخت جماعات منْها ماكان طرفًا في نسج عشريّة دمويّةٍ، ومنها ما

أجبرته آلة القمع على التظاهر بالتّراجع عن الكثير من قناعاته، ودجّنته ليغدوَ حليفاً صوريّاً في منظومة الحكم، في نفس النّص يبْدي الشّاعر تبرّمه من السّلطة :

ونضال من ...

هذا الذي أعطى الثّمار جميعها

للمتخمين وجوّعك

وبنى لهم في كلّ شبرٍ منزلاً

وعدمْت حتّى مضجعك

وإذا نطقْت جنى عليْك

وفي الغياهب أودعك[13]

لقد« تعمّمت نظرةٌ خاطئةٌ إلى مفهوم المثقف، بأنّه يعمل في الحقل السياسي، ملتزما بإحدى التيارات الفكرية التي أتتْنا من إشكاليات التحديث المطروحة في أوروبَّا ،وليس من الإشكالية الخاصة بالسّيرورة التاريخية »[14]، إنّ قضيّة المثقّف هي "الوعي" وليستْ السّياسة، لأنّ الوعي «نشاطٌ وفعاليّةٌ متحرّكةٌ لا تؤمن بالثّبات والاستقرار، لكنّ السّياسة محور نشاط السّلطة وفعاليّتها، تتحرّك دائماً في محور الثّبات والاستقرار »[15]، إنّ وجود المثقّف ضمن حيّزٍ مؤدلجٍ لن يفضي في النّهاية إلّا إلى استقطابه، ليكون بعدها بيْن خياريْن:

*إمّا أنْ يكون في ركب السّلطة، وحينئذٍ فهو مجبرٌ على ترويج خطاب السّلطة، ليتحوّل إلى مثقّفٍ عضويّ .

*وإمّا أنْ يكون ضمْن منظومة حزبيّة، وهذا لا يختلف – في الجزائر- عن الخيار الأوّل إلّا في كونه سيكون هدفاً لكلٍّ من السّلطة والجمهور في الآنِ نفسه .

2.3. المثقف المفكّر:

ولئن كان سليمان جوادي موارباً في الكثير من إحالاته، ويقدّم لنا صورة "المثقّف المناضل"؛ فإنّ الشّاعر عبد الحكم بلحيّا يقدّم لنا أنموذج "المثقّف المفكّر" الجريء، الذي يعنى بالتّفاصيل، ويتحسّس الجزئيّات، ويلج عالم المسكوتات في جزائر الألفيّة الثّالثة، إنّ دوْر المثقّف المفكّر كشفيٌّ وليس ظرفيّاً كدور المناضل، «إنّها مهمّةٌ وليستْ مهنةً »[16] :

يا ابن التّراب أتستبيح خرائطي

ورؤاي عندك تحضن الأطفالا

مازال يرضعك الفضيلة

من ترى دمه وذمّته عليْك حلالا

سيُبيدُ نسلك ما يُبِيدُ

ولم تكنْ إلّا لذاتك في غدٍ مغْتالا[17]

غالبيّة علامات هذا التشكيل تتردّد على ألسنة الشّعراء، ويسمح بها هامش الحريّة، إلّا ما تعلّق بعلامة "النّسل"، فلقد شكّلت هذه العلامة وحقلها الدّلاليّ أكبر طابوه ابتداءً من ألفيْن وأبعة عشر، لأنّها تقدّم إحالةً قويّةً على مشروع التّوريث الذي بدأ في سوريا، وأفشله الرّبيع العربيّ في كلّ من مصر وليبيا واليمن، وأريد له أنْ يتمّ في الجزائر، إنّ لنسق التوريث امتداداته الضّاربة في عمق الذّهنيّة العربيّة، يعتبر نسق التوريث باكورة أنظمة الحكم في العالم، غير أنّ صورته كنظام حكم مطْلق الصّلاحيات لم تصْمد طويلاً تحت ضربات الحداثة، بل إنّ الكثير من أنظمة الحكم تهاوتْ، ولم يتبقّ منها إلّا صوريّتُها التي لا تعدو أنْ تكون شعارًا قيميًّا، وتسطّر أنظمة الحكم في العالم العربيّ واحدةً من أغرب المفارقات في التاريخ، فقد أنهتْ القوميّات الكثير من أنظمة التوريث بذريعة التّوريث، بينما مارستْ توريثًا أجلى من توريث الملكيّة، لتنخلق ما يسمّيه فيصل القاسم"الجملكيات"[18] .

يستميت الشّاعر عبد الحكم بلحيا في عرض الميكانيزمات التي تطيل عمر الاستبداد :

ها نحن بلا هوادة قد

أكلنا كلّ الشّجر

فما أصبنا عشبة الخلود

ولا ألفيْنا ملكًا لا يبلى[19]

تتجلّى جماليّة النّسق في هذه المقطوعة حين تستدعي قصّة آدم (عليه السّلام) والخطيئة، لقد كانتْ خطيئة آدم ذنباً استوجب إنزاله إلى الأرض، بينما كانتْ خطيئة الإنسان في هذا التّشكيل هي القرابين والتّنازلات التي قدّمها للسّلطة رغبةٍ منه في مصلحة آنيّة، فالأوّل أذنب بغير قصْدٍ وعوقب، والثّاني أذْنب عن عمد فجوزيَ، إنّه "المثقّف العضويّ" الذي يتبنّى خطاب السّلطة، ويستميتُ في تبرير مغالطاتها، هذا النّوع يعيش راهنه ضمن اعتراف معاكس، ويسهم في خلق وعيٍ مزيّف، ينحصر جلّ نشاطه في البحثِ عن إجابات جاهزةٍ وثابتةٍ داخل المعطيات السّلطويّة، وآخر همّه التّغيير، لأنّ التّغيير يهدّد مصالحه، ومن هنا يتغاضى عن كلّ الارتباكات والثّغرات .

يمثّل المقطع السّابق المثقّف العضويّ ذي المرجعيّة السّياسيّة، وهناك مثقّف عضويٌّ من نوع آخر، ذي مرجعيّة دينيّة :

نار الله دوماً موقدة

في أشداق الفقهاء[20]

لا تتورّع السّلطة في استثمار الدّين لتحقيق مآربها، بل يعتبر الدّين من أنجع الوسائل في جزئيّة ترويج الخطابات، وبخاصّة في المجتمعات التي تستحضر الدّين في كلّ سلوكياتها

اليومية، تغدق السّلطة كثيرًا على المؤسّسات الدّينيّة الرسميّة أو غير الرّسميّة، لأنّها تسعى إلى شرعنة خطابها بما للخطاب الدّينيّ من قداسة في نفوس الجمهور .

« وهكذااستغلّتْ سلطة الألفيّة الثّالثة في الجزائر التّيار الإخوانيّ في إقامة تحالف رئاسيّ مقابل وزرات وهميّة بدون حقيبة، وهكذا أغْدقتْ على الزّوايا ومنحتْها امتيازات فاقت امتيازات الجامعة، فتصير شهاداتها مكافئة للشّهادات الأكاديميّة، ولا يخفى استغلالها في استغلال السّلفيّة العلميّة في كسْر شوكة الجماعات المسلّحة، والترويج لخطاب الولاء للحاكم وإنْ ظهر ظلمه »[21] .

يتعرّض الشاعر عبد الحكم بلحيّا بالتّفصيل لهذه الجزئيّة، ليبيّن معظلة هذا النّوع من المثقّف :

أنا التّجرّد من متون لا تحول

أنا الخليّ عن التردّد

والغنيّ عن التّعدّد

والقصيّ، القسوة، الشّطط، التّمرّد[22]

لئن كانتْ الارتباكات التي يعانيها الخطاب الأصولي كامنةٌ في بقائه خارج التّاريخ، من خلال بقائه على قراءة تراثيّة للنّصوص الدّينيّة(لاتحول)، فإنّ هذا هو نفس السبب الذي دفع السلطة إلى إنتاج سياسات مترهّلة، وذوات متوكّلة ومتباطئة (التّردّد) لم تستطع حتّى البتّ في هويّتها، لقدْ أضحى الإصغاء إلى العولمة ومختلف المشاريع الإنسانيّة ضرورة حضاريّة في أيّ محاولة للتّغيير، ومن ثمّة فالبقاء قيد قراءة تراثيّة مازالت تعتاش على كم من المقولات النّهائيّة، والحقيقة المطلقة، لن ينتج سوى المزيد من الصّدام، لأنّ الخلاف في هذه المنطقة لن يكون بين فكرة ومثيلتها، بل بين الكفر والإيمان، من هنا تجد هذه الخطابات مسوغها لممارسة كافّة أشكال العنف .

يحاول فيصل الأحمر أنْ يقدّم جزئيّة بالغة الأهميّة، هي غربة المثقّف، إنّ أكثر ما يجعل المثقّف يكفر بمبادئه هو أنْ لا يجد أرضيّة خصبةً لهذه المبادئ، قد يحصل هذا لاعتبارات عدّة أهمّها ضعف خطاب التّنوير في مقابل خطاب السّلطة، الذي ترمّم المادّة ترهّلاته، إنّه من الحمق أنْ يكون المثقّف مثاليّاً أكثر ممّا يجب، فيظنّ أنّه من الممكن تغيير المنظومات الفاسدة _ أيّاً كان نمطها_ دون عداءات، فقد يكون العداء من داخل المنظومة نفسها التي يمثّلها، هذا ما حصل في حركة التّصحيحيّات التي ظهرت في العديد من الأحزاب، والتي لم تستثن حتّى الحزب الحاكم، وعراب الثّورة، لأنّه بات يشكّل خطراً على السّلطة، ومن هذه الأخيرة أسّست لرؤيةٍ جديدةٍ في فقه السّياسة، تقرّر أنّ توصيف الحزب الحاكم لا يعني السّلطة، بل هناك النّواة الصّلبة للنّظام، والتي توكّل من يحكم باسمها في مربّع تحدّد إحداثيّاته بما يتوافق ومبادئها .

لابدّ للشّمس من مقود

لابدّ لي من جهاتي الأخر

لابدّ للأرض من حارسٍ في السّحر

لابدّ من لغة للنّجوم لفهم القمر

ثمّ لابدّ لابدّ لابدّ من قبسٍ يختفي

يقتفي قبسًا قد ظهر[23]

وإذنْ لابدّ للوطن من مثقّف (مقود)، بشرط أن يتناغم خطابه مع خطاب الجمهور(النّجوم)، ولابدّ أنْ يكون كلّ من الثقّف والجمهور مؤمنين بحتميّة التّراكم(ظهر) والتّجاوز(يختفي)، وغير ذلك سيسقط الكلّ في بئرٍ سحيقٍ من العبث، وربما تطفو الأهواء إلى السّطح لتصبح المصلحة الآنيّة سيّدة الموقف، وكثيراً ما تتعمّد السّلطة خلق ضبابيّة في التّواصل بين المثقّف والجمهور، من خلال إبرازه في صورةٍ مهترئةٍ من خلال جملةٍ من

الإكراهات، لتنتقل ثقافته من ميزة إلى عبء يثقل كاهله، وربما وصل الشّاعر نصر الدّين حديد إلى هذه المرحلة حين يقول :

القهر ليس بأنْ تموت بأرضنا****جوعًا ولكن أن تعيش مثقّفا

أنْ تركع الكلمات عند نعالهم **** وتشدّ كلتا الرّاحتيْن إلى القفا[24]

يقدّم يوسف وغليسي أنموذج الكلّيانيّة عند السّلطة، أو نسق الشّموليّة، لن يراعي الشّاعر الحقائق التّاريخيّة في تناوله الهجرة الأولى، ليُسهّل عمليّة الإسقاط، وليقلب منظورها التّناصّي، سيمثّل جعفر الطّيار أنموذج المثقّف المظطهد، بينما تمثّل قريش السّلطة المهيمنة :

للحاكم المُختار تعذيبي ونفْيِي

والبقيّة _ لو تبقّى من دمي_ للآخرين....[25]

إنّ العبث المنكتب في هذين السّطرين هو مقلوب أسئلة كثيرةٍ تمثّل جوهر نظريّة الهيمنة، وستظلّ تلقي بظلالها على تفاصيل الحياة، « لماذا هناك جماعات تظهر في هذا الوجود وهي تحمل معها أسس وجودها الكامل؟ ولماذا هنالك بالمقابل جماعات أخرى تفتقر إلى هذه الأسس فتعيش في نقصٍ وتبعيّةٍ دائماً للجماعات الأولى؟ هل أصبحت هذه التّبعيّة غائيّةً فعلاً؟ هل أصبحتْ جزءاً لا يتجزّء من الوجود؟ هل أصبحت تشكّل بنية النّظريّة السّياسيّة والاجتماعيّة اليوم؟ »[26]، ومثل هذه الأسئلة هي ما سيحوّل ظاهرة الهيمنة من سلوك تمارسه السّلّط المختلفة، إلى بحث في سلطة اللّغة نفسها، وتمثّلاتها في مختلف الخطابات، ستغدو ظاهرة الهيمنة وفق هذه الرؤية ثيمةً جماليّةً، وأكثر من هذا ممارسةً إقناعيّة « يتحدد فضاء تشكلها بين الرضى والقبول، والطواعية والقسر ، وكذا الإكراه المستمر، وهو ما جعل غرامشي يؤكد على ضرورة رصد "فينومينولوجيا الهيمنة" وأركيولوجيا تشكلها ومواطن كمونها في بنية اللغة والعلامة والمعنى، واستطيقا إنتاج النص في سياقاته السوسيو-تاريخية والثقافية، لان مجمل هذه العمليات سوف تعيد قراءة مفاهيم كثيرة في الخطاب الفلسفي والابستمولوجي والعلمي على حد سواء »[27]

يعمد الأخضر بركة في الكثير من المقاطع التي تتناول الشقّ السياسي إلى نمطٍ فريد من المثقّف،« إنّه المثقّف المفكّر الذي يتحاشى لحظات الصّدام مع السّلطة، ويشتغل على دراسة جزئيّات منظومة الحكم تمهيدًا لتفكيكها، قد يوصف هذا النوع بـ (المثقّف السّكونيّ) لأنّه بطيء الحركة، ولأنّ ثمرة اشتغاله تكون على المدى البعيد، وبالمقابل تأثيره مدمّر، لأنّه لا يلفت الانتباه، ويتْقِن تحويل الأفكار إلى ثوابت» [28] :

ألسْت ترى أنّ إدمانك المدح قد أفسدك

محشوٌّ مخاوفَ

تحتمي بمعادن وتمائم

بادٍ خرابك في ادّعاء القوّة

استكثر كما شئْت المرايا[29]

يمثّل هذا النّوع من المثقّفين كابوساً حقيقيّا لكلّ السّلط، لأنّ استراتيجيّته تنطلق من واقع السّلطة نفسها، ومن ثمّة تسهُل عليه العمليّة الاختراق، الشّاعر الأخضر بركة هنا يقدّم النفسيّة السلطويّة، ما يكتنفها من قلق، ناجمٍ عن استعداء الجمهور، من هنا فهي في حاجة دائماً إلى "المدح"، و"المرايا" لتحسين صورتها، وهذا تتكفّل به الأذرع الإعلاميّة غالبا، فأوّل مسمار في نعش السّلطة هو إعلام موازٍ بخطاب قويّ، يفقدُ خطاب الإعلام الموالي مصداقيّته، لتنتقل ظاهرة " الخرص" الإعلاميّ من الهامش إلى المركز، فيصبح الخطاب الوحيد المُتداول، هو خطاب الإعلام الخاصّ، تمثّل هذا النوع من الإعلام قناة الجزيرة القطريّة، ودورها في إسقاط الشّموليّات العربيّة .

مآزق المعنى

يواظب طيفك الطّينيّ في صدّ احتمالات الكلام

في غيهب اللّغة اختبأتَ[30]

الرّهان _إذن _على الخطاب، وقوّة الخطاب وفاعليّته، في عصر الصّورة والمباشر لم يعد هناك مجال لإخفاء شيء، بل يستحيل الإخفاء، ولكنّ جذوة التأويل تظلّ مشتعلةٍ، تمارس مغامرتها وفق مصلحة التّمركز والبقاء .

4 . خاتمة :

مما سبق نخلص إلى ما يلي :

- نسق التّابع من المفاهيم المطواعة التي هيمنت على الدّراسات الثّقافيّة المعاصرة، ذلك أنّه يمكن انوجاده في الكثير من الحقول المعرفيّة من مثل الكولونيالية وما بعدها ، النّسويّة ، السّياسة .

- يتجذّر مفهوم التّابع بقوّة في الشعر الجزائري المعاصر، كما يتّخذ تحوّلات شتّى، وقد يتّحد مفاهيميّا مع الكثير من المفاهيم المجاورة من مثل مفهوم المثقّف في الكثير من تجلّياته .

- إنّ رصد مفهوم التّابع واعتقاد تمثّله في النّص كما هو الحال خارج النّص لا يمتّ للمنطق الجماليّ بصلة، لأنّ النّسق داخل النّصّ تخييليّ محض، ومن ثمّة فلست مهمّته معارضة النّسق الخارجي، أو التّعبير عن قصديّة المؤلّف، بل في أحيانٍ كثيرة يتعارض النّسق مع رؤى المؤلّف ، لأنّنا هنا غب منطقة لا وعي النّص والمؤلّف على حدّ سواء .

هوامش :

1 عبد الله ابراهيم: الثّقافة العربيّة والمرجعيّات المستعارة، المركز الثّقافي العربي ، الدار البيضاء، بيروت ، ط1، 1999،ص 173

2 غزلان هاشمي: تعرضات المركز الهامش في الفكر المعاصر- عبد الله ابراهيم نموذجا، دار نيبور للطّباعة والنّشر والتّوزيع، العراق، ط1، 2013، 73

3 علي حرب: توطؤ الأضداد، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص22

[4] Harasym,Sara Negotiating the Structures of violence, in: Thepost-colonialcritic: Interviews, Strategies, Dialogues: Gayatri Chakravorty spivak, Routledge: NewYork, andLondon.1990 ,p141

[5] Westwood,S. Powerandthesocial, Routledge:London, andNew York.2002.p22.24

6 علي حرب: توطؤ الأضداد، ص14

7 البشير الإبراهيمي: منزلة المثقّفين ،جريدة البصائر ، ع42، نوفمبر 1936

8 غزلان هاشمي : المثقف العربي:الإمكان المفقود وراهن التغيير، مجلّة قوافل، ع19، أبريل 2015، ص117

9 سليمان جوادي: قال سليمان، دار التنوير للنشر والتوزيع الجزائرط1، 2012، ص 42

10 سليمان جوادي: قال سليمان، ص40

11 علي حرب:نقد الحقيقة.المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، بيروت ، ط3، 2005، ص91

12 سليمان جوادي: قال سليمان، ص20

13 سليمان جوادي: قال سليمان، ص20-21

14 جورج قرم: المثقف والسلطة بين المعانقة والمفارقة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، دط، الإمارات،2009، ص4

15 نصر حامد أبو زيد: الخطاب والتأويل، المركز الثّقافي العربي، بيروت /الدار البيضاء، ط2000،،1، ص152

16 علي حرب: تواطؤ الأضداد، بتصرّف ،ص19

17 عبد الحكم بلحيّا: حلاج النّهايات، دار ميم للنّشر، الجزائر، ط1، 2021 ، ص6

18 نحت لغويٌّ مؤلف من لفظتين : الجمهوريّة والملكيّة .

19 عبد الحكم بلحيّا: حلاج النّهايات ص26

20 عبد الحكم بلحيّا: حلاج النّهايات ص10

21 الحبيب راشدين : أزمة الخطاب الديني في العالم العربيّ ، مجلّة مواقف، ع61، سوريا، 2001،ص241

22 الحبيب راشدين : أزمة الخطاب الديني في العالم العربيّ ، مجلّة مواقف، ع61، سوريا، 2001،ص241

23 فيصل الأحمر: قلّ فدلّ، موفم للنّشر، الجزائر ، ط1، 2014، ص33

24 نصر الدّين حديد: رجل بربطتي عنق، موفم للنّشر،الجزائر، ط1، 2014، ص28

25 يوسف وغليسي: تغريبة جعفر الطّيار، جسور للنّشر والتوزيع، ط1، 2013، ص 56

26 حيدر علي سلامة : غراماتولوجيا الهيمنة عند غرامشي من بلاغة المثقف التقليدي الى بلاغة المثقف العضوي، المجلّة الثّقافيّة الجزائريّة، https://thakafamag.com

27 المرجع نفسه

28علي حرب:نقد الحقيقة، ص 154

29 الأخضر بركة: كيمياء الصّلصال، دار ميم للنّشر، ط1، 2013ص106

30 المصدر نفسه، ص 103

5. قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

- بركة الأخضر،2013، كيمياء الصّلصال، دار ميم للنّشر، الجزائر.
- بلحيّا عبد الحكم ، 2021 ، حلاج النّهايات، دار ميم للنّشر، الجزائر.
- الأحمر فيصل، 2014، قلّ فدلّ، موفم للنّشر، الجزائر، ط1،
- جوادي سليمان، 2012، قال سليمان، دار التنوير للنشر والتوزيع الجزائر.
- حديد نصر الدّين، 2014، رجل بربطتي عنق، موفم للنّشر،الجزائر.
- وغليسي يوسف، 2013، تغريبة جعفر الطّيار، جسور للنّشر والتوزيع، الجزائر.

المراجع:

- قرم جورج، 2009، المثقف والسلطة بين المعانقة والمفارقة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي ، الإمارات،
- ابراهيم عبد الله، 1999، الثّقافة العربيّة والمرجعيّات المستعارة، المركز الثّقافي العربي ، الدار البيضاء، بيروت ،
- حرب علي،2002، توطؤ الأضداد، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون بيروت، لبنان.
- حرب علي ، 2005، نقد الحقيقة.المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، بيروت .
- هاشمي غزلان، 2013، تعارضات المركز الهامش في الفكر المعاصر- عبد الله ابراهيم نموذجا، دار نيبور للطّباعة والنّشر والتّوزيع، العراق.
- أبو زيد نصر حامد، 2000، الخطاب والتأويل، المركز الثّقافي العربي، بيروت /الدار البيضاء،

المقالات:

- الإبراهيمي البشير ،1936، منزلة المثقّفين ،جريدة البصائر، الجزائر، ع42 .
- راشدين الحبيب، 2001، أزمة الخطاب الديني في العالم العربيّ ، مجلّة مواقف، ع61، سوريا،
- سلامة حيدر علي غراماتولوجيا الهيمنة عند غرامشي من بلاغة المثقف التقليدي الى بلاغة المثقف العضوي، المجلّة الثّقافيّة الجزائريّة، https://thakafamag.com